الأمر بأيدينا..

يمكن لتصوراتنا المسبقة وتوقعاتنا كمعلمين لمدى كفاءة الطلاب، او على العكس، محدودية امكانياتهم، أن توثر بشكل كبير على إنجازاتهم. بحسب كيلي (1963)، "تتأثر أفكار الشخص النفسية مسبقا وفقا للمنحى الذي يتوقع به وقوع الأحداث"

لذا فان تفكيرنا وسلوكنا الفعلي هما الى حد ما نتاج لتوقعاتنا المسبقة بشكل او بآخر، وهذا ما يفرض علينا طرح السؤال التالي بالرغم من كونه قد يبدو مستهلكا نوعا ما :إلى أي مدى نرى نحن طلابنا كأفراد قادرين فعلا على النجاح والنمو؟

تقدمت الي أريج، احدى طالباتي الجامعية، وهي من ذوي الاحتياجات الخاصة، والتمست العون في مشروع جماعي مؤلف من أربع مراحل كانت قد كُلّفت القيام به بمفردها بسبب وضعها الجسدي الخاص الذي يضطرها لاستخدام عكازين، ومعاناتها من صعوبات في السمع، وعدم قدرتها على التكلم الا بصوت خفيض .وقد حاولتُ إقناع معلمتها حينئذ بضرورة إدراجها ضمن فريق عمل متكامل، مع إبراز نقاط القوة العديدة التي تتمتع بها، لكن محاولاتي الأولى لم تؤت أكلها البتة .ثم علمت في وقت لاحق أن أريج أعُفيت من تقديم جميع العروض التقديمية في منهاجها الذي كانت تدرُسه ضمن اختصاص إدارة الأعمال.

من خلال معرفتي بأريج لبضع سنوات بصفتي معلم خدمة مجتمعية، ورغم كونها غير منخرطة في أي من صفوفي التدريسية، أستطيع ان اقول إني كنت على أتم الثقة بقدرتها على النجاح .وعلى الرغم من وضعها الصحي الخاص، تستطيع أريج التواصل بشكل جيد، فعندما اتواصل معها كمدرس، أكتب لها التعليمات وتهمس هي بالإجابة في أذني، ونتواصل أحيانًا بفعالية أيضا عبر تطبيق الواتساب. استمر عملنا معًا على مراحل متتابعة من المشروع، إلى أن اقتربت المرحلة الأخيرة وهي مرحلة العرض التقديمي النهائي، عندما يعرض الطلاب مشاريعهم مباشرة على الجمهور.

يومها، ارتسمت على وجه أريج ابتسامة ملؤها اللهفة والامل، وأبدت حماسًا كبيرًا عندما أخبرتها بإمكانية مشاركتها في العرض التقديمي .كانت ابتسامتها الفَرِحَة وقتها لا تُنسى ابدا، ابتسامة لم تفارق وجهها طيلة الجلسة، مما دفعني لاتخاذ قرارا بالتدخل بشكل أكثر فاعلية لضمان مشاركتها مع الجميع، لكن هذه المرة، كانت التدخل ناجعا وكان لنا ما أردنا، فقد تقرر أخيرا إشراكها في العروض التقديمية العامة مباشرة.

بدأنا أنا وأريج بتصميم الملصق الخاص بمشروعها في اليوم الذي سبق فعالية العروض التقديمية والتي نظمت لتمتد لثلاث ساعات، يقدم الطلاب فيها للزوار عروضًا تقديمية حول أفكارهم التجارية الإبداعية. وبقيتُ خلال تلك الفترة على تواصل مع والدة أريج لاطلاعها على آخر المستجدات، وازداد تأثري بالموقف حين علمت أن ذلك العرض سيكون أول عرض تقدمه أريج على الاطلاق خلال مسيرتها كطالبة.

لا زالت اللحظات الأولى من ذلك الحدث الاستثنائي حية تنبض في ذاكرتي، فقد رأيتها تدخل القاعة، وهي تستبق الخطى مفعمة بالحماسة المتقدة والهمة العالية، التي جعلتها تبدو، رغم عكازها، وكأنها تسابق

والدتها .كانت السعادة تغمر وجهها لتمكنها، ولأول مرة، من المشاركة في فعالية بهذا الحجم .قدمت أريج، متحدثة عبر مكبر الصوت، فكرة مشروعها لجمهور الطلاب والزوار .وأتذكر الاهتمام الذي حظيت به من نظرائها وزملائها في الجناح بعد الفعالية؛ إذ سارع البعض لالتقاط الصور معها، بعد أن شكلت لهم، بكلماتها وأفكارها، مصدرا مبهرا للإلهام.

عززت مشاركة أريج بالفعالية ثقتها بنفسها بشكل كبير، ما غيّر تصورها المسبق عمّا يمكنها تحقيقه، وبعد ثلاثة أسابيع، قررت المشاركة في مناظرة لذوي الاحتياجات الخاصة وايضا فازت بالمركز الثالث .وعلاوة على ذلك، قدمت أريج في الفصل الدراسي الماضي ايضا سرداً شيقا لهذه التجارب على منصة تيد العالمية الشهيرة (بنسختها المحلية المقامة في التأسيسي)، وكانت، وبكل جدارة، نموذجا ملهما لجميع الحاضرين ونالت المركز الرابع.

وعند تذكرها لتجربتها، أوضحت أريج كيف انها اصرت على المشاركة بعرضها التقديمي في تلك الفعالية، رغم عدم اضطراها لفعل ذلك أصلا لكونها كانت قد اعفيت من المشروع برمته، وعبرت عن حماستها لتقديم العرض، واشادت بالتشجيع الذي تلقته من عائلتها ومني، وأضافت أن فوزها بجائزة" الملصق الأروع "أدخل إلى قلبها النشوة والسرور .وأنهت أريج حديثها بالفكرة القائلة" لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ,"وأردفت" إياكم والتخلي عن اهدافكم .أجزم أننا جميعا نمتلك مستقبلًا مشرقا، ويوما ما سنهتف: لقد نجحنا."

تُعد قصة أريج خير مثال على قدرة تصوراتنا الذاتية، سلبية كانت ام إيجابية، على التأثير علينا وعلى دافعية طلابنا وإنجازاتهم .إنها توضح أن دور المعلم يستلزم بذل جهد إضافي يتجاوز ايصال المعلومة والمحتوى الدراسي للطلاب، ويتعدى ذلك الى تشجيعهم على أخذ زمام المبادرة ونيل شرف المحاولة، ليحققوا جل ما يصبون إليه .ولكم هو شعور رائع أن نعتقد، نحن كمدرسين، اننا قادرون على غرس الثقة وتعزيز وترسيخ إيمان طلابنا بأنفسهم وملكاتهم.

كانت أريج ولا تزال مصدر إلهام لزملائها الطلاب من جهة، ولي بصفتي معلماً مجتمعيا من جهة أخرى، ودعمت هذه التجربة الفريدة ايماني بأن توقعاتنا تؤثر حتما على تصرفاتنا، وان نظرتنا الايجابية لمجريات الامور ونتائجها لا بد ان تترك أثرها على مواقفنا وقراراتنا، والتي ستنعكس بدورها على طلابنا وجهودهم ومكتسباتهم.

المراجع:

Kelly, G. A. (1963). *A theory of personality.* New York: W. W. Norton.

محمد حسام النحاس هو محاضر في جامعة قطر. تشمل اهتماماته البحثية دراسة طرق تحفيز الطلبة، ولديه شغف كبير لإحداث التغيير من خلال التعليم وذلك عن طريق تحفيز الأفراد وخلق فرص تتيح لهم التطور الدائم بحيث لا تقتصر عملية التعلم لديهم لفترات قصيرة فقط، بل لتستمر أيضاً معهم طوال حياتهم.